

نظرية الاسلام حول العبادة

للاستاذ محمد سعود الانصارى

تعريب : الشيخ الصاوى على شعلان

ان جميع اعمال الناس لا تخرج عن امرين اما دفع الضرر أو التماس
المرضعة فالانسان فى الشعوب القديمة رأى احداث الطبيعة وتبين
خلال نظراته أن منها أشياء ذات تأثير فى نفع الانسان و أن بعضها
ذو أثر غير هذا ، فظن أن التأثير مرده الى تلك القوى الطبيعية و
و أنها هى التى تنفع و تضر و من اجل ذلك اعتقد. أنها آلهة فعبدها و
من ثم عبدوا النار الموقدة و المياه الجارية و الاشجار الباسقة الخضراء
و الحشرات الموزية كالحيات و الثعابين و العقارب و عبدوا الكواكب
و النجوم فى مطلعها و مغيبها فقدسوا السيارات السبع لتوهمهم أنها
الموثرة فى حركات هذا الكون و انها تمد العالم بتأثيرها و قد امنه
هذا الاعتقاد ردحا طويلا حتى عصرنا القريب و الى الان فى
بعض المذاهب ،

و قد اطلقوا على ايام الاسبوع اسماء هذه السيارات فى يوم الاحد
عند الهنود يسمى "آدتوار" و معناه يوم الشمس و سماوا يوم الاثنين
"سوموار" يوم القمر و هلم جرا. و اسماء الايام فى اللغة الانكليزية
لها نفس الدلالات و المعانى فالاحد Sunday يوم الشمس و يوم
الاثنين Monday يوم القمر و هلم جرا

و قد جاء الاسلام لتكريم الانسان و نطق القرآن الكريم بما يدل
على تكريم الله لآدم و ذريته فقال سبحانه "ولقد كرمنا بنى آدم"

كما صرح الكتاب الكريم بأن الارض وما فيها و السماوات وما عليها مسخرة للانسان مخلوقة من اجله فدللت الايات على أن الله سخر كل ما فى هذا الكون من أرض وسماء لبني آدم يقول الله سبحانه وتعالى "الم تروا أن الله سخر لكم ما فى الارض"، الى غير ذلك من الآيات وجعل آدم خليفة الارض اى منفذ احكام الله فيها -

وقد ذهبت الوثنية ببعض الناس مذاهبها و سلكت بهم شعابا متفرقة فمنهم من عبد الملوك و الطغاة و الجبابرة من أمثال النمرود و الفرعون و قال فرعون انا ربكم الاعلى ، و اتخذوا من كهنتهم اشباه آلهة ، و من هذا القبيل عبادة الهنود لكهنتهم المسمون "باوتار" و البوذيون كذلك يعبدون ما يسمى ب "مهاير" ،

ولما كان فى هذا اللون من العبادة اذلال للكرامة البشرية و انحطاط لقدار الآدمية نهى الله جللت قدرته أن يتخذ الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله و لم يأذن للانبياء أيضا أن يقول أحدهم للناس "كونوا عبادا لى من دون الله" فلا الانبياء و لا الملائكة فى عصمتهم و قد استهم يصح أن يعبد ، قال الله تعالى ، "و لا يأمركم أن تتخذوا الملائكة و النبيين أربابا ، ،

و ما من دين الا و دعا نبيه الى عبادة انه وحده لا شريك له ، ولكن الاقوام على امتداد الزمن تسرب اليهم الشرك و كان يصف الشرك عدة اسباب .

فمن ذلك انهم "اتخذوا لله وصلته بخلقه رموزا من التشبيهات و التمثيلات ، و بعد بضعة قرون أصبحت هذا التمثيلات و الرموز آلهة معبودة و نسيت الواحد عبادة الله ، كما أن الهنود مثلوا محبة الله لعباده بالمحبة التى تكون بين الام و ولدها ، تارة بالمحبة الزوجية كذلك كانا صنيع الرومان و الاغريق فى صنع الالهة على امثال هذه

العلاقات، و لما كان الساميون لا يحبون ذكر اناتهم على الاعلان ولا يقدمونهم في معرض المشاهدات فقد مثلوا محبة الله لخلقة بالمحبة التي تكون بين الاب و اولاده - و قد اعتقد بنو اسرائيل ان العزيز ابن الله وقد استاصل الله الشرك لجميع جذوره و جرائمه بقوله ليس كمثل شئ، أما اعتقاد المسيحيين في أن سيدنا عيسى المسيح ابن الله فانه رد عليه ساخرا بقوله "وكانا يأكلان الطعام"، وقال الشيخ قاسم النانوتوى رحمه الله مفسرا الآية الكريمة ان الذى يأكل شيئا من الطعام فانه لا بد من أن يكون في حاجة الى كل ما يوجد من الأشياء فيما بين السموات و الارض اذ أن الغذاء الذى ينمو في الارض يحتاج الى العناصر الطبيعية مثل الملح و الهواء و الماء و حرارة الشمس الخ و بناء على ذلك فان الذى يحتاج الى غيره لا يمكن ان يكون الها أو ابنا له . فاستبعد جميع صور التشبيهات و التمثيلات ، وهذا هو معنى قوله "سبحان الله عما يشركون"،

و لما تبين بعض الاقوام مظاهر صفات الله المختلفة ظنوا أن ثمة آلهة متعددة كثيرة و من ذلك ما زعمه الهنود من أن الخالق و المحي و المميت ذوات مختلفة لآلهة متعددة و جملة آلهة عند هؤلاء ثلاثة و هى على الترتيب برهما و وشنو و شيو و قد أوضح القرآن الكريم أن هذه الصفات كلها لموصوف واحد و هو الله وحده الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر هو الله الخالق البارئ المصور،

و شاهد بعض الناس الاعمال المختلفة في مظاهر الطبيعة كالغيث و المطر و الحرب و الحب فقد وهموا ان لكل عمل منها ، الها خاصا و كذلك تمثل الزردشتيون وجود الهين احدهما للخير و الآخر للشر و هما على الترتيب يزدان و اهرمن

والاشياء في نظر الاسلام و كذلك الحال ليس فيها خير محض و
 شر محض و انما يحكم بالخيرية أو الشريعة طبقا لممارسة الانسان لهذه
 الاشياء فمثلا تكون النار خيرا حين تستخدم لانظار الطعام و شرا اذا
 استعملت لاحراق بيوت الناس و قد رد الله تعالى هذا الاعتقاد بقوله
 ” فآلهمها فجورها و تقواها ” و في ذلك دليل على أن الهام
 النفس في الجاليتين خيرا و شرها انما هي مصدره قوة اله واحد و
 لذلك قال لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد -

ان فهم المعراج الروحي لدى الاسم السابقة كان يقوم على تصور
 ان العبادة الصحيحة هي تعذيب الانسان نفسه و تجرده من رغباته
 المادية و على مقدار حرمانه من لذائذ الدنيا و من هنا نشأت في
 الهند فكرة العزوف عن الدنيا و الزهد و تعذيب الاجسام (يوجا)
 كما ان هذه الفكرة كانت عند المسيحيين مصدر الرهبانية التي يملأ
 اصحابها الاديرة في كل مكان من الدنيا فقد كان الهنود و ما يزالون
 يروضون انفسهم في هذه اليوجا على الوان من العذاب و الارهاق كرفع
 الايدي مدة قد تنتهي بالشلل ، و من ذلك تجردهم من الملابس في
 البرد القارس و الحر الشديد و الاقتيات باوراق الاشجار و من ذلك فضاء
 المارة السبعة الوقت الطويل تحت وهج الشمس و حرها او تعليق
 انفسهم عكسيا باغصان الدوحة السامقة و فوق الآبار الى غير ذلك
 مما يستفيض به القول ، و قد جاء الاسلام يبين في الكتاب الكريم
 و السنة النبوية ان نعم الله مباحة و اباح لهم ان ياكلو مما في الارض
 حلالا طيبا و لم يحرم الله زينتته التي اخرج لعباده و الطيبات من الرزق
 و انه يريد بهم اليسر و لا يريد بهم العسر

و عندما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحرم عليه العسل
 بسبب واقعة قال الله تعالى له يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك

وامر الناس ان يتحلوا بزينة حين يغشوا المساجد والجماعات بقوله "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و امر بخير الاغذية النقية حين قال "كلوا من طيبات ما رزقناكم"، كما امتن على الانسان بان الدواب زينة كما انها منفعة حين ركبوها فقال "لتركبوها وزينة"، — و امر الرسول صلى الله عليه وسلم باتخاذ الزينة بين الازواج رجالا ونساء على السواء، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدهن و يكتحل و يتخذ السواك،

ومع ان الاسلام أباح للمؤمن أن يكون له مظهر جميل مقبول فقد رسم حدودا ووضع قيودا فحين وجه الى الطعام والشراب نهى عن الاسراف في غير آية، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا وانه لا يجب المسرفين كما أن بعض المواد تناولها التحريم،

ان الاسلام، نتيجة لكل ذلك، لم يجعل ترك الهوايات و اللذات قربة و عبادة بل وجه الاصلاح و القصد والاعتدال فيها، وحين يستمسك المؤمن بأمر الله و تصدق نيته تكون مطالب الانسان و شهواته عبادة في ممارستها و تركها امثالا لاحكام الشريعة في ناحية و التمتع بنعمة الله من جهة أخرى —

فنظرية العبادات في الاسلام كلها تتركز في كلمة التوحيد التي يكون الانسان مؤمنا عند الاقرار بها، فالكلمة الاولى من الشهادتين "لا اله الا الله"، تعنى أنه ليس ثمة معبود أى احد لائق العبادة و العبادة هو الخضوع لاحق فهما انه مالك النفع و الضرر يعنى اطاعته في الاوامر و النواهي، فالذى يقول لا اله الا الله يتعاهد أن مقصد حياته يكون طاعة الله و طلب رضاه، و يتضح هذا المفهوم من الاية الشريفة "ان صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العلمين"، —

ولكن كيف نعبد الله و ماهى الوسائل التي توضح لنا أشكال

العبادة وتحدد صور أداؤها؟ من الذى يعرفنا ويدلنا عليها؟ ان جواب ذلك فى الشطر الثانى من الشهاداتتين واشهد أن محمدا رسول الله يقر بأن هذا الرسول قد جاء برسالة الحق من عند الله فكلا و عمله من عند الله و بوحيه فبا الشطر الاول تعين مقصد الحياة و بالشطر الثانى تحدد طريق العمل فى الحياة —

والذى يرسم لنا الطريق فى الشطر الثانى قوله تعالى ”قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله“

و تصير الاعمال عبادة بالنسبة و الاقتداء برسول الله فى اداؤها فالفرائض فى أوقاتها على الاسلوب من النية و القصد الى طاعة الله و اتباع رسوله عبادة ، و التحلى بالنسبة فى الغذاء مثلا يغسل اليدين و التسمية و الاكل باليمين و بنية حفظ الحياة المستجابة لامر الله بعد ذلك طاعة و عبادة و كذلك طاعة و عبادة و كذلك التجارة الشريفة. و اقامة العدل و خدمة الصالح العام و تربية النشى و بر الوالدين فى ذلك كله طاعة يثاب عليها المؤمن مع ما يناله من سعادة دنيوية و فائدة مادية —

اذا قمنا باداء عمل على طريقه رسول الله كعبادة من العبادات بدون نية قبل العمل و انما على سبيل الرياء و التظاهر او الصدقة او نحو ذلك دون اخلاص النية لله لم يكن ذلك عبادة و جديرة بالثواب ، و مثال ذلك ان يؤدى صلوات امام الناس يقال انه من المصلين او ينقطع طول النهار عن الطعام و الشراب لفقدان ما ياكله و يشربه او لانه غير راغب فى ان ياكل او يشرب او لأى سبب من الاسباب دون نية الصوم لم يكن ذلك كله مما يعد عبادة .

و الدين يعد كل شىء من امانات الله الذى وهب للناس انفسهم و حواسهم و اموالهم على سبيل انها امانة لله عند الانسان — فيجب ان

يكون الحصول على هذه الايات وفق احكام الشريعة يكون الانتفاع عبادتا
و تكون الفائدة حينئذ ذات وجهين ففي الوقت الذي يتمتع فيه الانسان
بنعمة هذه الامانة في الدنيا تكون له في الاخرة ثوابها في جنة الله .

و الدعاء هو التماس الرغبات و طلب الحاجات من الله يلزمه
نفس ذلك الاخلاص باعتباره من العبادات و في الحديث ان الدعاء مخ
العبادة - فالداعي حين يرفع يديه بالضراعة الى الله يكون مسقطينا بان
الله هو وحده الذي يملك النفع و الضرر وانه هو القادر على قضاء الحاجات
و يكون كذلك موقنا باحتياجه الى الله و من ثم كان الدعاء مخ العبادة -
و لكن لا بد من الاخذ بالاسباب و اداء الواجبات نحو العمل ثم يكون
الدعاء بعد ذلك و الاخذ بالاسباب ثم الدعاء من سنن المرسلين و حينئذ
تكون ذلك كله من العبادات التي يرجى نفسها في الدنيا و ثوابها
في الاخرة .

و قامت بعض الملل و سائط بين العابد و المعبود و اذاعوا أن
العبادة لا تقبل من صاحبها بغير الوساطة كانه لا بد من توقيعه عليها
قبل أن تصل الى مستقر الجزاء ، الى حد أن اعتقد الهنادك أن البراهمة
خلفوا من يمين الله و من ثم كان توسط البرهمي شرطا في قبول العبادة
و في عقيدة المسيحيين أن الكهان على المستويات المختلفة لهم القرار
النهائي في دخول رحمة الله و الذين باعوا القراريط في الجنة فهناك
الاعتراف بين يدي الكاهن و الباباوات و من في حكمهم يصدر
أحكاما تصبح هي من الدين نفسه على قاعدة انما تحلونه في الارض يكون
حلالا في الجنة و بالعكس ، فاليهم غفران المعاصي او الطرد من الرحمة
لمن يشاؤون ، فقد جاء الاسلام يخلص البشر من الوان الاستعباد و كل
انسان مسؤل عن نفسه أمام ربه ، و كل يعبد الله في غير حاجة الى
الوساطة قال الله تعالى و اذا سألك عبادي عني فاني قريب و سوي

الاسلام بين الجميع في ما يؤدون من الطاعات لربهم فكل مسلم يؤم المسلمين في الصلوة و يقودهم في الجهاد -

و اراد اتباع بعض الملل أن يختصوا الخالق بأنفسهم دون سواهم فمنهم من خصه بطبقة دون طبقة او شعب دون شعب و ان ارادة الخير يختص بها قوم دون قوم كما يعتقد الهنادك أن الخير في الدنيا مقصور على الاربين منهم ، بل انهم يتجاوزون ذلك الى احتكار الديانة فلا يجيزون للمبوذيين و للطبقات الدنيا منهم أن قد حل معابدهم أو تغش هياكلهم او تعيد عبادتهم أو تتسبب الى ملتهم ثم هم ايضا يزيدون الطين بلة و الامر خطرا و شدة حين يمنعون الطبقة منهم أن تدخل في أي دين غير دينها الموروث عن اسلافها و اليهود يرددون كلمة اله اسرائيل و انهم شعب اله الذين اختصوا به و برحمته و قالو لن تمسنا النار الا اياما معدودة و اسفار العهد القديم مليئة بما لا يتسع له هذا المقال ،

و كان للايرانيين القدماء نصيبهم من هذا الاختصاص المزعون بالديانة الزردشتية ، و أوضح الاسلام أن الله تعالى ليس خاصا بشعب و لا طبقة و لا مذهب و لا اقليم كما خصه الايرانيون قديما و انما هو رب العلمين و رب الكائنات بسماءها و ارضها للخلائق جميعا و الناس أمام الله سواء ابيضهم و احمرهم ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، و قد بعث انبياءه الى كل الاسم و إن من امة إلا خلا فيها نذير و لكل قوم هاد كما بين ايضا الرسول الكريم في حجة الوداع و في فتح مكة كلكم لادم و آدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي و لا لايض على احمر و لا لاحمر على اسود الا بالتقوى أو بعمل صالح ان اكرمكم عند الله اتقاكم على اختلاف الفاظ الروايات في مراجع الحديث -

و الاحكام القرآنية شاملة لجميع الافراد و لا يميز الدستور الاسلامي بين حاكم و محكوم ، و على قدر اخلاص المؤمن و نيته يكون القبول في ما هو عبادة و في ما يتمتع به من النعم في هذه الحياة حتى يصبح

طعامه و شرابه و ملبسه عبادة حين ينوى بذلك المحافظ على صحته
 و تجنب الضرر و يقيم على النعمة بالشكر كل ذلك يحول المتعة الدنيوية
 الى عبارات و قربات ينال بها المثوبة و الاجر ، و لا فرق في العقوبة على
 الذين بين أن يكون مرتكبه كبر المنزلة او متغيرها فالناس سواسية
 كاسنان المشط —

و أوصى الاسلام بالاعتدال و القصد فلم يكلف احدا أن يقضى
 يومه صياما و ليله قياما و انما يحصل القصد حتى في العبادات فيصوم
 و يفطر و يقوم و ينام كما في الحديث ، و أن لا يتخلى عن واجباته
 المعاشية محتجا بالانقطاع للعبادة ، كما قال الرسول الكريم لابي
 الدرداء و غيره كعبد الله بن عمر إن لبدنك عليك حقا و الخطاب
 موجه للاول ،

كما في قصة اولئك الذين ارادوا أن يقضوا حياتهم في صلوة و
 صوم و انعزال بحجة أن رسول الله في مكانة من الله غنية عن مثل هذه
 العبادات فدعاهم رسول الله و بين لهم أنه أخوفهم و اقربهم الى الله
 ولكنه يصوم و يفطر و يقوم و ينام كما اسلفنا ، على أن المسلم
 لا ينبغي أن يشغله واجب عن واجب و لا تلهيه اعمال الدنيا عن اداء
 الشعائر و لا يتعلل بالنسك لاهمال السعى في طلب الرزق الحلال —

و اخيرا ان الله جعل الرسول الكريم في حياته انموذجا و قدوة
 و أسوة لمن كان يرجو الله و اليوم الاخر و في الاقتداء به و ترسم هداه
 نجاة للمسلم من الانحراف ذات اليمين أو الشمال و من ثم قال الله تعالى
 فاتبعوه لعلكم تهتدوا —